

## النَّجف الأشرف

مدينة إمام المتقين وحامل لواء سيد الأنبياء والمرسلين

الأستاذ الدكتور: صلاح الفرطوسي

خبير منظمة الاسيسكو

وعميد المعهد الاسلامي بروتردام



طلع علينا الصديق العزيز الباحث الجاد محمد سعيد الطريحي قبل شهرين ونيّف بكتاب جديد عنوانه (دولة النجف) استحق أن يكون مدعاة للإثارة والنقاش وبعض الصخب الذي صدر من هنا وهناك من أقلام مخلصه أحياناً، وأخرى معروفة مدفوعة الأجر في أحيان أخرى، هوّلت الأمر وزمرت وطبّلت له، ومما يؤسف عليه أن غالبيتها لم تكلف نفسها النظر في صفحات الكتاب كي تستوعب ما ورد فيه فتناقشه بعقلانية بعيداً عن الطنطنة الجوفاء التي لا تنفع المسلمين، ولا العراقيين، ولا أبناء المدينة، ولا غيرهم، ودعت بالويل والثبور وعظائم الأمور، وإلى شق الجيوب لأن العراق آيل للتقسيم كما نبهوا لذلك على حدّ زعمهم، ومن عجيبات الأمور أن أحداً منهم لم يجرؤ يوماً على الكتابة عن غير فردوس العراق خلال العقود التي استباح بها الطاغية كل مقدس في حياة شعبه، ومن المضحكات التي تدعو إلى الشفقة أن إحدى الصحف التي كتبت مثل هذا توجد في دولتها أكبر القواعد الأمريكية التي انطلقت منها مئات الطائرات والصواريخ التي قصفت مدن العراق وروعت شعبه الذي تتباكى الصحيفة اليوم على وحدته وعرويته، وكان من باب أولى أن تكتب عن هموم شعبها قبل أن تكتب عن تفتيت العراق المزعوم وتمزيقه، وكنت أتمنى أن يكتب الصحفي البار عن هموم المدينة المنكوبة كي يشعر أبناءها بأن صحفياً عربياً ذا قلم نزيه يواسيها في محنتها، وكان من باب أولى أن تتبرع الصحيفة بمكافأة كاتب تلك المقالة الهزيلة إلى بعض الأسر النجفية المنكوبة.

والباحث السعيد حمل هموم مدينته المقدسة بين جنبيه ورحل بها إلى أرجاء العالم لوحده دون طلب مساعدة من أحد، وكان وجهاً من وجوهها اللامعة منذ أن

فارقها فتياً يافعاً، وشخصية من شخصياتها الجديرة بالاحترام والتقدير، وكان أيضاً موسوعة في دراسات الأديان يحسب حسابها في الوسط الأكاديمي العلمي، وشخصية عراقية ارتبطت بوشائج مودة ومحبة بكثير من الكتاب والباحثين العراقيين من جميع الأعراق والمذاهب، واستطاع أيضاً عقد صلات علمية وثقافية مع كثير من الشخصيات العربية المرموقة، وكان وجهاً إسلامياً مدججاً مع الآخر جعلته محل احترام وتكريم، وافترشت بحوث مجلته (الموسم) مساحة لا تستطيع أن تزاحمها فيها أكبر المجالات العربية الجادة، وشاركت في تحريرها نخبة من أكابر العلماء والكتاب المثقفين من مختلف الجنسيات.

وما كانت المدينة والضريح المقدس من وجهة نظره ملكاً لطائفة من الطوائف، أو ملّة من الملل، كما لم يفكر أتباع مذهب أهل البيت من قبل أن الإمام عليه السلام هو إمامهم لوحدهم دون سائر المسلمين كما صور ذلك الإعلام الدنس الذي جاهد لإشعال نار الطائفية في العراق، فهو حينما يذكره عليه السلام في قنواته وأخباره يتبع كلامه بلاحقة هي (الإمام المقدس عند الشيعة)، وكأنه عليه السلام غير مقدس عند بقية المسلمين، وكأنه وآل بيت الرسول عليه السلام ليسوا الحبل الذي أوصى النبي الكريم (ص) بالتعلق به.

كانت رؤية الباحث قديمة أراد لها أن تتجدد، ولكن ليس بالصورة التي تدعو إلى الانفصال والانسلاخ عن الجسد، وإنما كي تكون المدينة جديرة بميراثها وتراثها الفارق في أعماق التاريخ، وبقدسية مرجعيتها على طول الحقب والأجيال.

وجميع ما ورد في الكتاب جدير بالنظر والاهتمام والمناقشة، بدءاً من عرضه التاريخي الذي غاص فيه آلاف السنوات قبل الفتح الإسلامي وبعده، وقدم فيه من المعلومات ما يستحق الإشادة والذكر، وانتهاءً بوضعيتها الحالية، إلى التصور الذي يمنحها خصوصية تستحقها، ولعل أغلب ما أورده الباحث راود أذهان عارفي تاريخ المدينة، والمتعلقين بها، وخاصة بعد الأحداث العاصفة التي مرت بها خلال العقود المنصرمة، ولكنه قدمه برؤية تتماشى مع العصر وتتناسب مع مكانة المدينة في نفوس المسلمين بلا استثناء.

والأسطر اللأحقة هي حلم مغرب أتعبه الترحال، يأمل أن يعود إلى مدينته في أقرب الآجال ليقضي في رحاب حاميتها عليه السلام خريف العمر قبل فوات الأوان كان الفضل في تسطيرها للصديق العزيز السعيد حفظه الله وسدد خطاه.

مازالت زيارة المدينة المقدسة حلماً يداعب ملايين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وتشرئب لها الأعناق من بعيد فتتشوفها فردوساً يتعبد في محرابه السحر والإيمان، تحفّ بها الملائكة، وتطوف في جنباتها أرواح آلاف العلماء والزهاد

والنساك وعباد الله الصالحين من الذين رأوا في تربتها طهوراً لذنوبهم، فهم في حمى من قال فيه المصطفى (ص): (أنا وأنت أبوا هذه الأمة)، وهم في حمى من محبته إيمان ويغضه كفر، الفاروق بين الحق والباطل، وبين الجنة والنار كما قال أخوه عل(ع)، وهكذا أصبح جواره ملاذاً للنفوس الشقية التي تبحث عن شفيح تلوذ به من عذاب البرزخ، ومن هول المطلع العظيم.

ويحدثك وادي السلام فيها بقصص تدعو إلى الدهشة والعجب من إصرار ملايين المسلمين في أقاصي الأرض على طول التاريخ على دفن موتاهم وأعزتهم في ذلك الوادي المهيب، كما تحدثك قباب الوادي وشواهد قبوره عن أجيال وأجيال من أكابر العلماء والنساك والمؤمنين الصالحين تزاومت أجسادهم في ذلك المكان المهيب رغبة في حمى الإمام وشفاعته.

ويسبب من هذه العقيدة الراسخة، والحب الغامر الذي ملك الأرواح قبل النفوس والأجساد اختارت جواره أمة من الخلق، كما اختارت زيارة روضته الطاهرة جحافل من الضارعين على طول الدهور والحقب، وأحبته في خوف وصمت أمم أخرى، واستشهد في محبته ما لا يحصى، وكتبت عن عدله وإيمانه وتواضعه وتشفه بانبهار وإعجاب أمة من الخلق لا علاقة لها بالإسلام، ورأت في حكومته أقلام من دهور متعاقبة مثلاً لن يتكرر للعدالة التي تناضل من أجلها الشعوب في أرجاء الأرض.

وحينما كان يعصف الطغيان بمواليه (ع) تراهم يتسللون إلى ضريحه الطاهر بحذر خوفاً من أعين الرقباء، وكثيراً ما لاقى هذا النضر الأمرين في الطريق الشاق الطويل.

ويسبب من هذه العلاقة الروحية تعرضت مئات الأجيال التي اتخذت من جواره مسكناً ومدفنناً إلى السحق والتعذيب والظلم والتعسف والحرمان بسبب طائفة الحكم التي امتدت منذ استشاده (ع) وحتى الآن.

ويسبب من سوء الفهم ناصبت محبيه أمة من المسلمين العداوة والبغضاء، واتهمتهم بأبشع التهم، ووسمتهم بالكفر مرة، وبالمروق عن الدين في أخرى، وبتحريف العقيدة وتشويهها في ثالثة.

وليت الجور الذي اكتوت المدينة بناره كان على يد التتار أو المغول، أو على يد أمة من أعداء المسلمين، كانت محنتهم وعداباتهم على يد إخوانهم، إما بسبب من سوء الفهم، أو بسبب طائفة الحكم، أو بسبب فتاوى علماء السلاطين ممن باع دينه من أجل دنياه، ويسبب من كل ذلك كانت النار والكراهية توجج ناراً وتزرع كراهية وبغضاء، وعلى الرغم من محاولات المدينة اليائسة تبيان وجهات نظرها في

الدين أو الحكم أو العقيدة، أو موقفها من المذاهب الأخرى، أو محاولاتها اليائسة لطي صفحة الماضي السوداء، والبدء بصفحة جديدة توحد بين المسلمين وتزيح عن كاهلهم ما لحق بهم ويسمعتهم من تشويه، فإن أغلب القائمين على الأمر ساموها سوء العذاب بمحاصرة نتاجها الفكري، أو تشويهه، أو إعدامه، فلم يسمح لهم بالاتصال بالآخر، أو التعبير عن وجهة نظرهم بحرية، فإن حاولوا فالويل لهم لأنهم أعداء الله وأعداء رسوله وصحابته.

ولم يكن سكان المدينة أو المهاجرون إليها من الداعين إلى العدوان أو الاعتداء، وما طالب أحدهم يوماً بغير حقه، فالويل له إن فكر بذلك، أو حدث نفسه به، بل الويل له إن طالب بحقه يوماً لأن الحكم له بالمرصاد، بل الويل للحكم إن فعلها وأعطاه بعض ما يستحق، فهو طائفي يعتدي على حقوق الآخرين المقدسة.

وعلى الرغم من كل ذلك كانت مواقف المدينة حاسمة مع كل معتد على حرمت أمتها التي لم تبادلها يوماً مودة ولا إنصافاً، بل لم تحرك الدماء التي سالت في ضريح الإمام وصحنه الشريف غيرة أحد من الكتاب والمفكرين والصحفيين، بل إن المقابر الجماعية التي ضجّت بها أطرافها لم تحرك ضمير العالم كي ينظر إليها أو يذكرها إلا بعد رحيل الطاغية.

كانت الأمة في أقطار الأرض تتشقى بعذابات سكانها، وتتعاطف مع الشيطان ولا تتعاطف معهم، ويوم كانت جلودهم تسليخ، وأجسادهم تكوى ما كان يرمش جفن أحد في الجامعة العربية أو في منظمة المؤتمر الإسلامي بسبب طائفية الحكم، وقوة تيار الإعلام المضاد.

وعجيب موقف سكانها من الأحداث التي تعرضت لها أمتهم في المشرقين فأنت تستطيع الوقوف على آلاف القصائد الشعرية التي نادت بالجهاد لاسترجاع الحق العربي في فلسطين قبل الفلسطينيين أنفسهم، وتستطيع أن تقرأ من شعر الثورة الملتهب المناصر لحق الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال ما لا يمكن أن يقرأه في جميع الصحف العربية، كما أن أول صيحة صدرت في البلاد العربية لمناصرة الشعب الليبي ودعت إلى الجهاد صدرت منها، ولا أظن أن مدينة قدمت عدداً من الشهداء يتناسب مع عدد سكانها كهذه المدينة الثائرة أيام العدوان الثلاثي على مصر، وحكايات لها أول وليس لها آخر في الدفاع عن الأخ وابن العم والجار الجنب تقرأه في تاريخها الحافل بالأمجاد.

وعلى الرغم من جميع مآسيها ومحن المنتسبين إليها فقد أنجبت للأمة رعيلاً لا يحصى من كبار العلماء في شتى مسارب المعرفة، احتل بعضهم مكان الصدارة بين أقرانه وأبناء جيله، وبرز من بين أزقتها المظلمة وحواريها الصغيرة ما لا

يحصى من الشعراء والكتاب والنقاد والأدباء والشعراء والفنانين ما زال بعضهم من مفاخر الأمة.

ولا يختلف اثنان من المنصفين في مشاركتها الواضحة بالحركة الفكرية والسياسية في الوطن العربي والعالم الإسلامي، ولا يشك منصف في أنها كانت وما زالت كفرسي رهان في السبق الثقافى التنويري مع القاهرة وبغداد ودمشق وبيروت، ولعل خير شاهد على ذلك عدم خلو أي كتاب جاد في الفكر أو السياسة أو الثقافة من غير مطبوع طبع في مطابعها التي زاحمت أقدم المطابع العربية في الريادة.

ولا يختلف اثنان من المنصفين في أنها كانت لوحدها العصية على الاستعمار منذ دخوله العراق، وأنها لوحدها صاحبة الحق في الثورة العارمة التي شهدتها العراق منذ دخول الإنجليز وحتى إعلان الاستقلال، وأنها لوحدها من أعلن الاستقلال وسن أول دستور عرفه العراق الحديث، وأنها لوحدها كانت سبباً مباشراً في انهيار كثير من الأنظمة التي حكمت العراق على طول تاريخه منذ القرن الخامس الهجري وحتى الآن، وأنها لوحدها كانت سبباً مباشراً في انهيار عرش الطاغية، كما كانت سبباً في انهيار غيره من العروش.

ومن نكد الدنيا وحظ الأمة العاثر أنه حينما اضطر عشرات الآلاف من أبنائها إلى هجرة العراق لم يجدوا متسعاً يحميهم ويخفف من آلامهم، ويزيح شبح الرعب الذي عشعش في قلوبهم، ويمسح الدمعة من عيون صغارهم، ويستفيد من قدرات علمائهم في بيوت أغلب إخوانهم وأبناء عموماتهم، بل كان وراء تنقلهم في أرض الله الواسعة حكايات تشيب لها الرؤوس وتقشعر من هولها الأبدان.

والمدينة الواعية التي تنام في أحضان تاريخ أهل البيت المشرق عصية على القيادة أو الترويض، فما زال إمام الحق والعدل (ع) يتردد صدى صوته في جنباتها، فتسمع قرآناً وحكمة وصوت عدالة ومواقف إنسانية لا تعرف الجور والظلم مطلقاً، ليس سوى العدل الصارم الذي لم يعرف المهادنة أو المراوغة أو لعبة السياسة.

والمدينة منذ أن اختارها الإمام الطوسي في أخريات القرن الرابع الهجري مقراً لحوزته شهدت نوعاً من استقلالية الإدارة والحكم وحتى العقد الثالث من القرن العشرين، واستمرت صوتاً مهاباً يزرع القلق والخوف في نفوس الحكام وصناع القرار، وفي ذات الوقت شهدت من الاعتداء على حرمانها وحرمة مرقد حاميتها ما لم تشهده في القرون الماضية، ولعل أكثر الاعتداءات وحشية ما جرى بعد حرب الخليج، وبعد انهيار نظام الطاغية مما دفع طائفة من المثقفين والمفكرين إلى التفكير بإيجاد وضعية خاصة للإدارة في المدينة بحيث تجنبها وزوارها ما يمكن أن يعكر صفو أمنها من خوف أو تهديد.

تأسست المدينة يوم تأسست كي تكون جامعة علمية يقصدها طلاب العلوم الشرعية من أفاق الدنيا وهكذا كانت مقصداً لهم لقرون عدة، وبنيت لهم فيها أقسام داخلية لاستيعابهم، لذا كنت تراها حتى أواخر الستينيات تعج بأقوام من جنسيات مختلفة دون أن يعكر صفوهم تفكير بإقامة، أو خوف من الانتماء إلى جنسية معينة أو بلد معين، وكانوا جميعاً بكفالة حوزتها العلمية التي كانت تنفق عليهم من الحقوق الشرعية التي تصلها من شيعة العراق أو من غيرهم في البلاد الإسلامية.

والمدينة لقرون عدة كانت مكتفية في واقع الحال اقتصادياً إذ حباها الله بسوق رخيصة مقارنة بأسواق العراق الأخرى، إلا أن الحصار الذي ضرب عليها حولها في القرن الواحد والعشرين إلى مدينة أشباح وخراب، في الوقت الذي كان يجب أن تتحول إلى واحدة من أهم المدن الإسلامية بسبب السياحة الدينية التي حرمت منها طوال الأربعين سنة الماضية.

والتفكير بنوع من الخصوصية في إدارة الحكم فيها ليس بجديد فقد راود أغلب شرائح سكانها، كما راود زوارها منذ أزل بعيد، وقد آن الأوان أن ن فكر في الأمر بعقلانية بعيداً عن الشعارات التي تصدر من هنا وهناك، ولم تقتل جرادة من قبل، وبعيداً عن الشعارات التي ما عاد أحد يهتم بها في أرجاء الوطن العربي والعالم الإسلامي التي تتباكي على مصير العراق الأيل للتقسيم بحسب شعاراتها الجوفاء، وأغراضها الدنيئة، فالعراق الذي لم يقسم من قبل، لا تستطيع قوة أن تقسمه اليوم.

يجب أن نعرف أن العالم يتقدم خطوات متسارعة إلى التوحد، ويجب أن نتشوف مصير أنظمة الحكم التي تقف في طريق تيار التوحد، وتوحد العالم هو توحد اقتصادي قبل كل شيء، والتوحد الاقتصادي هو الذي يخلق التوحد السياسي الصحيح، ورأس المال الذي كان في القديم تابعاً سيصبح بالحثم متبوعاً، وإذا كان حكام الشعوب العربية يجلسون على عروش آيلة للسقوط فإنها بالحثم ستهاوى في قريب عاجل إن لم تفكر بجديّة في الإصلاح، وإن ما حدث في العراق سيحدث لغيره ولكن بتفاوت هنا وهناك، وعلى الأبواق المأجورة أن تستحي من سوء تفكيرها وتفكير مموليتها، ومن عجيبات الأحوال أن من يتباكي على مصير العراق والعراقيين بيته من الزجاج الهشّ السريع الانكسار.

وتتناسى جوقة المهرجين أن العراق أقدم دولة عربية استطاعت كسر شوكة الاستعمار في القرن العشرين، وتتناسى أن العراق منذ مطلع القرن قدم ما لم تقدمه دولة على مذبح الحرية والكرامة، وتتناسى استحالة صبره على الظلم،

فمنه أشرق الشمس، وعلى روابيه رست سفينة نوح (ع)، وفيها ولد أبو الأنبياء (ع)، ومنها عرف العالم القانون وحقوق الإنسان، ومن بين أوديته شع فجر الحضارة الإنسانية على العالم.

والبلاد التي توحدت منذ أن وجدت لا يمكن أن تتحول إلى دويلات في يوم من الأيام، والعراق الذي حارب الظلم منذ فجر التاريخ لن يكون يوماً مستعمراً بأي وجه من الوجوه، يعرف هذا من حاول استعماراه أو يحاول.

النجف الأشرف عين العراق ومصدر زهوه يجب أن تكون مدينة ذات وضعية خاصة في إدارة شؤونها العامة والخاصة، وفي إدارة حياتها الثقافية والعلمية، وفي هندستها وريازتها وقوانينها.

أما مرجعيتها التي تمنحها ثقلاً خاصاً في العالم، وقدسية في نفوس أتباع مذهب أهل البيت فإن عليها إعادة النظر في كيانها وإدارتها المالية والثقافية، وإذا كانت بعيدة عن الشبهات في جميع العصور، فإن من حولها لا يبتعد عنها، لذا وجب عليها التفكير في تجنب الهمس واللمز، وعلينا إذا كنا شريحة مثقفة ملتزمة بمذهب أهل البيت توجيه المشورة الصادقة دون تزويق أو تشويه لقدسية المرجعية التي نكن لها كل التقدير والتقدير، ولما كانت بمنزلة الأب للطائفة فإن عليها سماع جميع الآراء المخلصة التي ليس لها من مصلحة إلا إعلاء شأنها وشأن المدينة، والحفاظ عليها تراثاً ومنازراً، وجعلها في مصاف الذرى بين المدن المهمة في العالم، بل علينا أن نجاهد بكل غال ونفيس كي تكون مدينة إمام المتقين صاحبة كلمة مسموعة مهابة في الخافقين.

وأول أمر نضعه بين يدي الصفوة المقدسة كي تفكر به تبني وضعية مالية تجنبها كثيراً من الشوائب التي كدرت سمعتها، وعليها أن تفكر بصورة جادة بتكوين مجلس استشاري من مثقفي الطائفة وأكاديميها من ذوي السمعة المرموقة من غير رجال الدين من أدباء وكتاب ومختصين في شتى مشارب المعرفة للاستفادة من آرائهم وخبراتهم ورؤاهم تجتمع بهم بين الحين والآخر لتطوير المدينة وتوسعة آفاقها العمرانية والثقافية والعلمية، وعليها نشر الوعي الذي يجنب القائمين عليها والمنتسبين إليها مزالق السياسة ونظرتها الضيقة.

إن مقام المرجعية كبير في أذهان جميع أبنائها بلا استثناء، وعلينا أن ندافع عن هذا المقام بكل قوة، وهو دفاع يستمد مقوماته من دعوة سيد الكائنات (ص) التي جاهد في تلبيتها أخيه أمير المؤمنين، لذا فإنه لا بد أن يكون للمدينة حمى لا يرفع فيه سلاح بأي وجه من الوجوه، ولا بد لتحقيق ذلك من تكاتف المرجعية بكل ثقلها

مع سكان المدينة ليس بمنع حمل السلاح فيها فحسب، وإنما بإجلاء كل محتفظ به منها كي تكون مدينة أمن وأمان كما أرادها إمام المتقين أمير المؤمنين (ع). ولا بد من التفكير بعمرانها على أسس علمية وفق خطة مدروسة تجنب مراقدها المقدسة وآثارها الدينية التشويه والتخريب، ولا بد أن نفكر بشكل جماعي كيف نستطيع أن نحولها إلى مدينة عالمية يقصدها العالم من أنحاء الدنيا دونما خوف أو وجل.

ومشروع من هذا النوع يحتاج إلى كل حكمة المراجع العظام وتقواهم كي تقوم عليه أياد متسلحة بالعلم والمعرفة والتقوى ونكران الذات. وليتها تتوحد في مجلس استشاري يضم صفوتهم في بناء مهيب يتناسب مع قدسية مكانتهم وتاريخهم، ومن يدخل مجلس الصفة لابد أن يتميز بميزات تؤهله لذلك، وإن شاءت الصفة أن تتخذ من هذا المقام المهيب مكاناً لعيشها فلها، وإن رأت فيه خروجاً على تقشفها وزهدا فهي حرة في سكن المكان الذي ترغب بسكنه.

والمرجعية في أمس الحاجة إلى مؤسسة ثقافية تعتمد على مجلسها الاستشاري مهمتها تعريف الآخر بمذهب آل البيت، بأسلوب حضاري يبتعد عن المهاترات التي أضرت بالمسلمين عامة وبأبناء الطائفة خاصة، كما يناط بها تعريفنا بالآخر الذي ناصبنا العداة واتهمنا بشتى التهم، إنه أمر جليل، لابد أن نواجه أنفسنا به، وفي اليوم الذي نبدأ فيه الخطوة الأولى ستتلاحق الخطوات كي تكون مدينة الإمام أم المدن بعد الحرمين الشريفين وبيت المقدس.